بلاغة جمهور الخطاب الديني على وسائل التواصل الاجتماعي (الفايس بوك " نموذجًا")

د.لعويجي أحمد
جامعة محمد بوضياف- المسيلة-

الملخص: يعيش العالم الإسلامي تحديات كبيرة؛ تفرض على كل المسلمين وبدون استثناء شحذ الهمم، وبذل الجهد والوقت والمال في سبيل مواجهة هذه المتغيرات والتحديات التي يفرضها النظام العالمي الجديد أو ما يسمى بنظام العولمة المتوحش، والذي لا يراعي خصوصيات المجتمعات؛ بل على العكس من ذلك فقد جعل العالم الإسلامي هدفا له؛ فخصص الميزانيات الضخمة لدراسة نفسية وعقلية المسلم، وجيش الجيوش المزودة بأحدث ما أنتجت المصانع الحربية في بلاد الغرب للسيطرة على بلاد العرب والمسلمين ونهب ثرواتها، واستغل كل ما أتيح له من وسائل التواصل الاجتماعي للتغلغل داخل الأسرة المسلمة، ومحاولة ضرب استقرارها من الدّاخل.

من هذا المنطلق وجب على الداعية الإسلامي(الخطيب) أن يتسلح بكل أوتي من قوة- قوة الكلمة- وأن يتجهز بما استطاع من آليات وسبل تجعله قادرا على مواجهة هذه المستجدات والمتغيرات؛ فيكون خطابه هادفًا مثمرًا، وأن يرتقي بهذا الخطاب إلى مستوى المواجهة؛ حتى يحقّق هذا الخطاب الاستجابة المطلوبة لدى جمهوره، هذا الجمهور الذي يئس من الخطابات التي تدعو في مضمونها عن قصد أو غير قصد إلى الخنوع والذل والمهانة؛ جرّاء انبطاح البعض، وبيع ضمائر البعض الآخر وثبات القلّة القليلة على المنهج والحق المبين.

الكلمات المفتاحية: الخطاب- الخطاب- الجمهور- الاستجابة- التأثير- التأثّر- بلاغة الجمهور.

Résumé: éloquence du public, discours de la religion sur les moyens de communication sociale

Le monde islamique vit des grands défis qui oblige les musulmans à faire es efforts en temps et en argents afin 'affronter ces changements que le système du nouveau monde où la mondialisation sauvage les imposent. Il ne s'intéresse aux confidentialités de la société au contraire il le fait son but .il a consacré le budget gros pour étudier la psychologie et la mentalité du musulman et l'armée qui a des provisions modernes que les usines militaires les produisent dans les pays occidentaux pour dominer les pays arabes et les musulmans et voler ses fortunes ,Il a exploité les moyens de communication sociale en plongeant au fond de la famille musulmane en essayant de frapper sa stabilité de l'interne.

De ce thème, le propagandiste islamique (orateur) doit d'armer avec force des mots et de préparer lui-même avec des outils qui le fait capable d'affronter ces changements. Son discours doit donner des fruits en montant vers le niveau de l'affrontation pour réaliser la satisfaction du public car il a désespéré des discours qui implique de son contenu l'humiliation et de vendre la conscience et de fixer la minorité sur le chemin vrai et clair.

Les mots clés: discours -public -satisfaction- affection- affectif –éloquence du public.

مقدمة:

يواجه العالم الإسلامي اليوم متغيّرات وتحديات كبيرة في ظل العولمة أو القطبية الأحادية، يتقدمها هذا التحزّب العالمي بشرقه وغربه متناسيا أحقاده وخلافاته. لا لشيء إلا لمواجهة الإسلام؛ هذا العدو الوهمي الذي استطاعت السياسة الغربية أن تجعل منه ماردا حقيقيا يمكن أن يصيب شرره كلّ ما هو غير إسلامي؛ وأن المسلم ما هو في أعماقه إلا ذاك الإرهابي المتطرف؛ الذي يتحين الفرص للانقضاض على كل ما هو غربي. وذلك حتى تحوّل أنظار شعوبها عن كل التظلّمات، وتشغلها بعداء الإسلام عن جوانب القصور الموجودة في بلادهم.

من هذا المنطلق ما هي السبل التي تمكن الداعية الإسلامي(الخطيب الديني) من مواجهة هذه المستجدات والمتغيرات؟ وما علاقة الخطاب الديني بهذه المستجدات؟ ثم ما مواصفات الخطاب الديني الذي يستعمله الداعية حتى يثمر في مواجهة هذه التحديات؟ أو قل كيف يمكن أن نرتقي بالخطاب الديني إلى مستوى

المواجهة- مواجهة التحديات المفروضة-؟ وما مدى تفاعل الجمهور مع هذا الخطاب؟ وكيف يمكن أن يُحدث الاستجابة المطلوبة؟ وما هي الطرق التي يتعامل بها الداعية مع استجابات الجمهور، أي: التعامل مع ما ينتجه الجمهور من خطابات؟ وكيف تُفعّل هذه الاستجابات وهذا الخطاب المضاد خدمة للخطاب الديني؟

مفهوم الخطاب: وردت لفظة (الخطاب) في مصادر اللغة العربية من قرآن كريم، وحديث نبوي، وكذا في كلام العرب، فقد ورد في كتاب الله عزّ وجلّ قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان:25] وجاء في موضع آخر قوله:﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ [طه: 95] وفي موضع ثالث قال الملك العلّام:﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: 23]. وقد جاء في تفسير قول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ :« أي الكلام البيّن الذي يفهمه من يخاطب به قال مجاهد: إصابة القضاء وفهمه وقال القرطبي البيان الفاصل بين الحق والباطل قال المفسرون: كان ملك داود قويا عزيزا، وكان يسوسه بالحكمة والحزم معا، ويقطع ويجزم برأي لا تردد فيه مع الحكمة والقوة، وذلك غاية الكمال في الحكمة والسلطان»[1]. وأورد ابن منظور في معجمه (لسان العرب) في تفسير قوله:﴿وفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ «هو أن يحكم بالبينة أو اليمين؛ وقيل: معناه أن يفصل بين الحق والباطل، ويميز بين الحكم وضده؛ وقيل: فصل الخطاب أما بعد: وداود ـ عليه السلام أول من قال: أما بعد؛ وقيل فصل الخطاب الفقه في القضاء»[2] . وفي الحديث النبو الشريف وردت لفظة (خطبة) في قول المصطفىﷺ والذي نهى فيه عن خطبة المسلم على أخيه المسلم فقال:« لا يبيع الرجل على بيع أخيه ولا يخطب على خطبة أخيه.»[3] واستعملت لفظة (الخطاب) ومشتقاتها في كلام العرب شعره ونثره، فمثال الشعر ما جاء على لسان ساعدة بن جوابة الهذلي حين قال:

ومنّا العقر حين بلغهم
كما لفّ صردان الصريمة أخطب[4]

ومثال ما النثر جاء على سبيل المثال لا الحصر في لسان العرب« وفي حديث عمر، وقد افطروا في يوم غيم من رمضان، فقال: الخطب يسير.»[5]

مفهوم الخطاب في اللغة:

ورد في لسان العرب لابن منظور:« ... والخطب: هو الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشأن والحال؛ ومنه قولهم: جلّ الخطب أي، عظم الأمر والشأن،... وفي التنزيل: قال فما خطبكم أيها المرسلون، وجمعه خطوب... والخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان،... وخطب الخاطب على المنبر، واختطب يخطب خطابة، واسم الكلام الخطبة... وهو أن الخطبة اسم الكلام الذي يتكلم به الخطيب... والجوهر: خطب على المنبر خُطبة؛ بالضمّ، وخطبت المرأة خِطبة بالكسر، واختطب فيهما...»[6] كما ورد في المعجم الوسيط:« الخطاب: الكلام. وفي التنزيل: فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب والخطاب الرسالة. وفصل الخطاب... أو هو خطاب لا يكون فيه اختصار مخلّ، ولا إسهاب مملّ... والخطاب المفتوح: خطاب يوجّه إلى أولي الأمر علانية»[7]. فـ:(الخطاب) في اللغة، هو: الكلام، مراجعة الكلام، الرسالة المحاورة وتبادل أطراف الحديث، التواصل مع الآخر التلفظ والقول،...

مفهوم الخطاب في الاصطلاح: ورد مصطلح (الخطاب) بتعريفات متنوعة تبعا للأوصاف التي قد يقترن بها، نحو: الخطاب السياسي، الخطاب الصوفي، الخطاب التاريخي، الخطاب الدّيني...

وقد خلص الدّارسون في هذا المجال إلى أن لفظة (الخطاب) أكثر ما ورد ت في بداية الأمر عند الأصوليين مع إغفال بعضهم تعريف هذا المصطلح؛ في حين تطرّق بعضهم الآخر إلى تعريفه؛ على نحو ما فعل الآمدي الذي عرّفه بقوله:« اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو

متهيئ لفهمه »[8].والملاحظ أنه حصر الخطاب في تلك العملية التخاطبية التي تتمّ بين مخاطِب ومخاطَب، ومن مجتمع لغوي واحد، أو من مجتمعين لغويين مختلفين؛ ولهما القدرة على إفهام بعضهما بعضا؛ مع تهيؤ كلّ السبل التي تتيح تنقل الألفاظ بينهما دون عوائق. إلاّ أنه لم يشر إلى جانب مهم في العملية التخاطبية؛ وهو ما يصاحبها من حركات للجسد، وتقاسيم الوجه، وإشارات تساعد على فهم وتأويل الخطاب.

في حين عرّفه عبد السلام المسدي، بقوله:« بأنه تحويل لغة عن لغة موجودة سلفا وتخليصها من القيود التي يكبلها بها الاستعمال والممارسة، فالخطاب الأدبي بهذا المعنى كيان عضوي يحدده انسجام نوعي وعلاقة تناسب قائمة بين أجزائه»[9].

والملاحظ أنّ هذا التعريف قد حمل في طيّاته إشارات إلى مجمل القوالب الشكلية التي تخضع لها مكونات الخطاب وأجزائه من قواعد نحوية وصوتية وبنى صرفية. وأكّد المسدي في موضع آخر من كتابه (الأسلوب والأسلوبية) على الوظيفة التواصلية للخطاب من خلال قوله: « هل للحديث اللغوي ـ نفعيا كان أو إبداعيا ـ من شرعية وجود إن لم يرتبط بإجراء دلالي أو إلزام واقعي؟ بل هل يتصور أن يؤدي البث الفني وظائفه التأثيرية بمعزل عن إبلاغ رسالته الدلالية الإلزامية؟»[10].

وحدّه – الخطاب- طه عبد الرحمان، بأنّه: « كل منطوق به موجه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا. »[11] وفيه إشارة إلى توافر العناصر المشاركة في العملية التخاطبية، من: مرسل، ومرسل إليه، وقناة ناقلة للخطاب، ورسالة مع مقوماتها: الدلالية والنحوية والصرفية، وما يحيط بها من علامات لغوية.[12]

أنواع الخطاب: يمكن أن نميّز بين أصناف ثلاثة للخطاب: **الخطاب ألإيصالي، الخطاب القرآني، الخطاب الإبداعي**[13]؛ وهي متمايزة إلى حدّ كبير، فـ:

1ـ الخطاب الإيصالي: ومنه: الخطاب التواصلي العادي، والخطاب الإعلامي والخطاب السياسي، والخطاب التعليمي، وتتفق هذه الخطابات في تركيزها على الوظيفة النفعية الإبلاغية إلا أنها تختلف من خصائصها المكونة من صوت، ومعجم، وتركيب، ودلالة.

2ـ الخطاب القرآني: وهو خطاب فريد يقوم على غير المألوف، خرق أفق التوقع لأصحاب البلاغة فتوالت الدراسات التي تحاول كشف سرّ إعجازه وتفرّده، والدّال فيه لا يقبل القراءات الوصفية الحرة، ذلك أن قراءته تتطلب إحاطة عميقة بعلوم ومعارف تعتبر أدوات وضوابط تتضمن قراءته قراءة سليمة.

3ـ الخطاب الإبداعي: ينقسم هذا الصنف إلى نوعين: نثر وشعر، والوظيفة الشعرية فيه لا تقتصر على الشعر وحده، ولكنها تظهر فيه بشكل أكبر، والخطاب الإبداعي يتميز بكثافة شكله الذي يستوقفنا قبل مضمونه؛ لأنه يركز على الوظيفة الشعرية في المقام الأول.

والملاحظ أن الخطاب الديني يندرج ضمن القسم الأول(الخطاب الإيصالي) فما هو الخطابي الديني الإسلامي؟ فيما تختلف نفعيته عن بقية أنواع الخطاب الأخرى؟ وما هي خصائص مكوناته(صوتا، ومعجما، وتركيبا، ودلالة)؟

الخطاب الديني:

1- **معنى الخطاب**: الخطاب هو كلّ ما يصل إلينا من أفكار أو تصورات والتي تنقل إلينا بأيّ شكل من أشكال التعبير اللغوي مسموعا كان أو مرئيا، وبكل الوسائل المتاحة: تقليدية أو معاصرة، وسواء أكنّا نتلقاه بصفة جماعية أم فرادى، وهو لا يقتصر على ما يمكن أن نسمعه في المساجد على شكل خطبة جمعة أو درس وعضي أو تعلمي(فقه، حديث، مواريث...).[14]

2- **معنى الدين:** وهو مجموعة المفاهيم والمعايير والاتجاهات التي يعتنقها الفرد أو الجماعة.[15]

ويشمل كل خطاب يدور في فلك الدين؛ سواء تعلق الأمر بمجال: العقيدة أو السيرة أو الحديث أو الفقه... وفي أيّ صورة كانت: محاضرة أو خطبة أو رسالة أو مقال...

مستويات الخطاب الديني الإسلامي: يرى محمد الفران في كتابه(مظاهر التجديد في الخطاب الديني الإسلامي المعاصر) أن الخطاب الديني الإسلامي المعاصر، ينقسم إلى مستويات خمسة[16]:

* المستوى الأول: مستوى خطاب الإسلام الأصيل: وهو من اختصاص العلماء والفقهاء الذين يعتبرون أنفسهم القيّمين عليه والذائدين عن حياضه.

* المستوى الثاني: مستوى الخطاب الإسلامي الشعبي: وهو في الواقع المرجع لأغلبية المسلمين في العالم العربي، ويتضمن مسائل الممارسة اليومية للشعائر الدينية لدى العامة التي تتصف بالمعرفة البسيطة، وتتسم بواقعية الالتزام الروحي.

* المستوى الثالث: مستوى الخطاب الإسلامي السياسي: وتتعدد مشاربه ومراتبه، وتتفاوت بين السلم والتسامح، وبين التطرّف والعنف، وهو خطاب حركي ينتهجه مثقفون، هدفهم إنشاء دولة إسلامية، ويقدمون نماذج اجتماعية وسياسية للمجتمع الإسلامي بناء على قراراتهم وقناعاتهم.

* المستوى الرابع: مستوى الخطاب الإسلامي الرسمي: هو خطاب رسمي يعكس دين الدولة؛ لا من منطلق الممارسة الاجتماعية للشعائر؛ بل من حيث إنّه مكونًا من مكونات المنظومة الدستورية المكتوبة والتي تحدد الوظائف داخل الدولة.

* المستوى الخامس: مستوى الخطاب الديني العلماني: ويتسم بمظهرين:

1- مظهر يتسم بالقطيعة مع الدين جملة وتفصيلا، فأصحابه يقدمون خطابا حول الدين لا يمس مستوى المعتقد إلّا مسا خفيفا، وغالبا ما يركزون على علاقة الدين بالسياسة.

2- ومظهر ثانٍ لا يقوم على القطيعة مع الدين الإسلامي؛ بل يحاول أن تكون القطيعة بين المستوى الديني من جهة والمستوى الدنيوي من جهة ثانية، ومن مبادئه:

- اعتبار الشريعة الإسلامية مكونا من مكونات الهوية التي من حق الشعوب الإسلامية أن تختارها لنفسها بحرية وطواعية؛

- لا يجوز أن ينتهك هذا الحق للجماعات التي تدين بمعتقدات أخرى؛

- تبقى الشريعة الإسلامية بالنسبة لهذا الخطاب ذات أهمية بالغة في تكييف مواقف المسلمين؛

- ضرورة إيجاد التوافق بين قضايا الشريعة والمبادئ المتعارف عليها.

بين البلاغة القديمة وبلاغة الجمهور:

غيرها من العلوم لم يكن وليد لحظة زمنية بعينها؛ بل تعاقبت عليه مراحل عدّة علم البلاغة كغيره من العلوم الأخرى؛ سواء أكان الأمر متعلقًا بعلوم اللغة العربية، أم حتى اكتمل صرحه، وصار علمًا قائمًا بذاته، له قواعد وضوابط تحكمه.

والمعلوم عن العرب أنهم ومنذ العصر الجاهلي كانوا على درجة رفيعة من الفصاحة والبلاغة وحسن البيان؛ ويتجلّى ذلك في قول المولى عزّ وجلّ:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾[البقرة:204] أيْ: « ومن الناس فريق يروقك كلامه يا محمد ويثير إعجابك بخلابة لسانه وقوة بيانهن ولكنه منافق كذاب...»[17] وزاد في موضع آخر موضحًا قوة العرب في الجِدال والحِجَاج فقال:﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[الزخرف:58] أي:«... ما قالوا هذا القول لك إلا على وجه الجدل والمكابرة لا لطلب الحق ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ أي هم قوم شديدو الخصومة واللجاج بالباطل قال في التسهيل: أي ما ضربوا لك هذا المثال إلا على وجه الجدل، وهو أن يقصد الإنسان أن يغلب

من يناظره، سواء غلبه بحق أو بباطل... ».[18] ثم إنّه ولمّا كانت معجزة المصطفى ﷺ ، والحجة الدالة على نبوته هي القرآن الكريم؛ فيه ما فيه من الدلالة على تمكّن العرب من البلاغة وحسن البيان؛ فتحدّاهم المولى تبارك وتعالى، بقوله:﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[البقرة:23و24]، أيْ:« :﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾...إذا كنتم أيها الناس في شك وارتياب من صدق هذا القرآن، المعجز في بيانه، وتشريعه، ونظمه، الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمدﷺ ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ أي فأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن، في البلاغة والفصاحة والبيان﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾أي أدعوا أعوانكم وأنصاركم الذين يساعدونكم على معارضة القرآن غير الله سبحانه...فإن لا يقدر أن يأتي بمثله إلا الله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي أنّه مختلق وأنّه من كلام البشر...﴿ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا ﴾أي فإن لأم تقدروا على الإتيان بمثل سورة من سوره، وعجزتم في الماضي عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه، مع استعانتكم بالفصحاء والعباقرة والبلغاء﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ أي ولن تقدروا في المستقبل أيضا الإتيان بمثله...»[19]. فهذه الدعوة تدلّ بوضوح على ما كان للعرب من فصاحة وبلاغة، وقدرتهم على تمييز الألفاظ والمعاني، ومعرفة ما يجري فيها جودة وإفهام وبلاغة التعبير.

ولما كان اهتمام البلاغة العربية القديمة؛ بنصوص: القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وكلام العرب بعصوره الذهبية المختلفة؛ شعره ونثره؛ فكانت هذه النصوص مصادر لقوانين لهذا العلم ؛ وهذا ما جعل علم البلاغة يحتل هذه المكانة الرفيعة، وهذه القيمة الجليلة بين مختلف علوم اللغة؛ والهدف من هذا العلم يتمثل في الانتهاء بالمعنى إلى ذهن السامع فيعيه ويفهمه،أيْ:«أ، يوصل المتكلم كنه ما في نفسه إلى المخاطب بأسلوب حسن أو بصورة جميلة... وهي صفة للكلام والمتكلم، فيقال: كلام بليغ ومتكلم بليغ.»[20] ثم إنّ ما تريد بلاغة الجمهور الوصول إليه؛ هو الاهتمام باليومي والحياتي، أيْ: تعتني بتعليقات الناس على كل ما يتعلق بحياتهم اليومية؛ كتعليقات الناس حول لوحة دعائية في الشوارع أو في وسائل التواصل الاجتماعي، أو على مباراة في كرة القدم، أو على خطاب معين بغض النظر على نوعية هذا الخطاب(سياسي، ديني...) أو مناظرة سياسية، أو على الإعلانات التي تظهر على واجهات الصحف، أو على التلفزيون..؛ فموضوع بلاغة الجمهور يتمثل في الاستجابات التي ينتجها الجمهور حيال خطاب معين أو لوحة إشهارة... بمعنى أن الجمهور طرفا فاعلا فيها وليس مجرد مستقبل وفقط، بل عليه أن يكون قادرا على المشاركة في بناء الخطاب من خلال « إنتاج معنى نص المتكلم عن طريق التأويل والتفسير فإنه يستطيع أن يدخل تغييرات جوهرية على الرسالة ذاتها من خلال استجاباته لها»[21] وقد يكون للعلم –بلاغة الجمهور- رأي آخر بعد أن يكتمل وتنضج قواعده وقوانينه؛ بأن يهتم بالأدب بكل مراحله؛ انطلاقا من النصوص القديمة وصولا إلى أساليب التواصل الشفاهي.

بلاغة المُخَاطَب/ الجمهور: بلاغة الجمهور فكرة في طور البناء، أيْ: مشروع لم يكتمل بعد، وتعود فكرة نشأة هذا العلم إلى الوضع التواصلي الجديد، وما فتحته وسائل الاتصال الحديثة للشخص العادي من آفاق رحبة، وإمكانية التواصل مع الآخر؛ وبالتالي المشاركة في بناء الخطاب من خلال انتاح استجابات في مواضيع مختلفة؛ فبإمكانه أن يعلق على مقال، أو خبر في صحيفة الكترونية، أو وسائل التواصل

الاجتماعي(فيس بوك، تويتر،...)، أو مقابلة في كرة القدم...وبالكيفية التي يراها مناسبة؛ بمعنى أنها: علم يهتم بدراسة استجابات الأشخاص تجاه خطاب معين، والعلاقة بين الاستجابة والخطاب، ويحاول تقديم معرفة علمية للجمهور تمكنه من التمييز من الخطاب الذي يهدف خدمته، والخطاب المتلاعب؛ الذي يريد تضليله واستغفاله؛ وبالتالي يكون إمّا داعما لهذا الخطاب وإمّا مقاوما له، ثم إن هذه البلاغة ترتبط ارتباطا وثيقا بثقافة الجمهور ومستوى تعليمه؛ فكلما كانت ثقافته عالية ومستوى تعليمه مرتفع كانت استجاباته رشيدة وأكثر تأثيرا.

هذه الاستجابة التي« تمثل المدخل الطبيعي لدراسة العلاقة بين الخطاب والسلطة. فسلطة الخطاب تتجلى أساسا في الآثار التي يحدثها في استجابة الجمهور، ومن ثم فإن القيود والمحددات التي تفرضها الظواهر اللغوية على استجابة الجمهور قد تعتبر معيارا لتحديد ما هو سلطوي، كما أن نجاح خطاب سلطوي ما في تحقيق وظائفه يقاس أساسا بقدرته على السيطرة على استجابات مستهلكيه، وإن السلطة لا تمارس من خلال اللغة فقط، وإنما أيضا من خلال الاستجابات الموجهة التي تتعاضد معها.»[34] فالخطاب ليس ظواهر لغوية تعمل على إنتاج المعاني ورسمها في ذهن المستمع؛ وإنما يتعدى الأمر إلى البحث في العلاقة بين مكونات الخطاب اللغوية(ألفاظ- دلالة- تراكيب...) وبين الاستجابات الفعلية للمستهدفين بهذا الخطاب.

أهداف بلاغة المخاطَب/ الجمهور: يسعى هذا العلم إلى تحقيق جملة من الأهداف يمكن تلخيصها في ما يأتي:

- إمداد الإنسان العادي بمعارف تمكنه من الكشف على تحيّز خطاب ما، وما يمكن أن ينضوي عليه من: مبالغات، ومغالطات، ومفارقات للواقع، وتناقضات داخلية؛ والتمييز بين خطاب يسعى إلى السيطرة عليه، وآخر يسعى إلى تحريره.
- تدريب الإنسان العادي على إنتاج استجابات بلاغية فعالة تجاه كل ما يتلقاه، تمكنه من مقاومة الخطابات المتلاعبة.
- تقويض إمكانية استخدام اللغة للتلاعب بالجمهور؛ مما يجعل علم البلاغة في خدمة الطرف الأضعف في عملية التواصل الجماهيري.
- تخليص البشر من كل ما يعمل على تشويه الفهم والايصال؛ مما قد يؤدي إلى خلق اتصال حرّ.[35]

خصائص استجابات الجمهور: عدّ عماد عبد اللطيف في مقال له منشور في مجلة (فصول دراسات نقدية) وموسوم بـ: (تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية) لاستجابات الجمهور خمسة خصائص تتمثل في الآتي:

- الآنية؛
- ضعف الخضوع للرقابة؛
- ضخامة حجم الاستجابات وتعدد أنواعها؛
- قابلية تجهيل المصدر وصعوبة التتبع؛
- سهولة القابلية للحصر.[36]

نص الخطاب موضوع الدراسة: النص عبارة عن كلمة للدكتور أحمد عمر هاشم رئيس قسم الحديث بجامعة الأزهر؛ ألقاها بمناسبة الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف، لسنة: 1440هـ.

«...قال له: دعها إنّك لا تعرفها إنّها خولة بنت ثعلبة سمع الله شكايتها من فوق سبع سماوات،

وهي تجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم والله يسمع الحوار بينهما؛ هنا نقف مع وقفته ومع عظمته ومع تحديه لقريش كلها ؛ لكنّه يسمع إلى البسطاء الكادحين... يسمع أنين طفل بالليل ليعلم أنّ أمّه تعالجه للفطام فيسألها، فتقول: إنّ عمر لا يفرض في بيت المال إلا للفطيم؛ فأنا أعلله للفطام، فيقول: ياوى بئس لعمر. كم قتلت من أبناء المسلمين؟ ثم يصدر قانونا: بأنّه فرض لكل مولود في الإسلام فطيما كان أو غير فطيم. هذا هو عمر يا أيها المسؤولون في كل الأرض: يا كل ملوك الدّنيا، يا كل رؤسائها، يا كل وزرائها، يا كل عظمائها ومسؤوليها. هذا هو الفاروق عمر؛ الذي كانت جموع المسلمين يخشون بأسه، وملوك الفرس تخشى بأسه؛ هاهو ذا يخشع ويبادر لتلبية أصحاب الحاجات؛ فافتحوا أبوابكم لأصحاب الحاجات، تأتي الهجرة، لتقول: افتحوا أبوابكم لأصحاب الحاجات واسمعوا لشكاية الشاكِين ووحدوا صفوفكم؛ وقد كانت الهجرة دعوة إلى الوحدة حيث آخى بين المهاجرين والأنصار، وكانت الهجرة دعوة لتوثيق الصلة بالله، وكان بناء المسجد النبوي دعوة لتوثيق الصلة بالعلاقات الدولية، فكانت صحيفة المدينة. كل هذا وذاك يدعونا إلى الوحدة؛ لتوحيد الصف، وجمع الكلمة.

يا أمة المصطفى توبوا لبارئكم
حتى يَرُدَّ عدوا فاغرا فاه
فالابتلاءات لم تنزل بأمتنا
إلا بذنب كبير قد فعلناه
يا أمتي وحدوا في الحق صفكم
إن التشرذم للخسران عقباه
حبيبنا المصطفى من ذا ينازعه
حبيبنا المصطفى من ذا تحداه
نحب أحمد أغلى من محبتنا
لنفسنا بدمانا قد فديناه
هو الحبيب المرجّى يوم لا أحد في موقف
الحشر يدري أين مثواه
يا أمتي لله في ثقة إن تنصروا
ربكم ينصركم الله»

يمكن أنْ نستخلص جملة من الملاحظات حول التعليقات وردود الأفعال؛ المتعلقة بهذا التسجيل الخاص بخطاب الدكتور أحمد عمر هاشم بمناسبة المولد النبوي الشريف.

1- الملاحظ أنّ عدد التعليقات لحظة حصولي على التسجيل الصوتي وصل إلى ما يزيد عن مئة وسبعة وخمسين تعليقا (157) ، وأن كل هذه التعليقات باللغة العربية إلّا ما ندر؛ أي هنا تعليق واحد ورد بحروف لاتينية وغير محدد الدلالة(nbhsufk) أمّا بقية التعليقات فيمكن تصنيفها كالآتي:

- تعليقات كتبت بمستوى عربي فصيح وما أكثرها إذا ما قورنت بالعدد الإجمالي للتعليقات، نحو: "اللهم صل وسلم وبارك على أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ" و "كل عام وأنتم بخير" و" أطال الله في عمرك وبارك في صحتك"...

- تعليقات كتبت بالعامية الخالصة، نحو:" شفت النور بيروح ويرد الزاي كل ما نطلع خطوات نرجع نفيد ولا جديد رغم لو اتسستم صح تقدم بلا عودة إيه دا كل شيء رمز وصلح المرموز بتصلح حالك توماتيكي والعطلان يتصلح الفاسد يتعدل وتدور الدوايرصح واللي فيه الخير يعينا بيه ربنا:

- تعليقات مُزِج فيها المستويين الفصيح والعامي، نحو:" مين يسمع يا دكتور" و" دهب ياشيخ" و" اتخدعنا فيك منك لله"...

- تعليق كتبت فيها كلمات عربية بحروف لاتينية، نحو:"allh wakbare" (الله أكبر).

- تعليقان اثنان استعمل صاحباهما الرموز التعبيرية غير اللغوية، أحدهما: عبر بملصق هو صورة لطفل أو طفلة صغيرة تفتح يدها لتقبض على شيء قُدّم لها، والثاني: عبّر بالشكل:

- تعليقات وردت في صورة لفظة واحدة، نحو:"تم" و"رائع" و"ممكن"...

- تعليقات ورد فيها تكرار لبعض حروف الكلمة، نحو:"عاالم" و" الكبيييير"...

- تعليقات تكرر فيها التعبير نفسه، نحو:"الله أكبر الله أكبر" و"اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه"

- تعليقات ورد بين بعض ألفاظها مسافات معينة، نحو" أطال الله عمرك.....يا فضيلة الدكتور الكبيييير.....حفظك الله".

التحليل: إنّ التنوع اللغوي والأسلوبي في استجابات الجمهور جاء ترجمة لما تحمله هذه التعليقات من دلالات اجتماعية وثقافية وسياسية؛ تبرز شخصية كاتبها: الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية...، وما يمتلكه من قدرات خطابية يمكن أن يستغلها في التعبير عن قناعاته حول ما ورد في هذا الخطاب، « فتنوع الخلفيات المعرفية والثقافية يتيح فرصا ثرية للتواصل الحي عبر الثقافات، ويضمن تنوع المنظورات والرؤى المقاربة للحدث الخطابي موضع التعليق.»[37] هذا من جهة، وللتفاعل مع المتكلم أو مع بقية المعلقين مهما كانت انتماءاتهم الجغرافية أو العرقية... ومهما امتدت حدودهم الزمنية من جهة ثانية، ومن منطلق أن « التّعليق هو الأصل شكل من أشكال التفاعل بين المتلقي وخطاب المتكلم، يكمل دائرة الحدث التواصلي، فمنتج الخطاب ينتج الخطاب ويقوم بتوزيعه عبر وسائط متعددة - من بينها الأنترنت- حيث يتلقى المخاطَبون هذا الخطاب، ويستجيبون له عبر عدد لا يحصى من الاستجابات .»[38] يمكن تصنيفها إلى ما يأتي:

* التعليق على نص الخطاب كاملا، نحو قول أحدهم:"دهب يا شيخ" و"ما شاء الله على الكلام الطيب" و"رائع"؛ فمثل هذه التعليقات تنطوي على تعطش أصحابها إلى فرسان منابر لا يخشون في الله لومة لائم، ويعملون على تقديم النصح والإرشاد للمسؤول مهما علا منصبه، ودون مجاملة.كما يمكن أن نقرأ من هذه التعليقات أنّ هذا الخطاب اتخذ واقع الناس المعيش، وأحداث الحياة اليومية منطلقا له؛ مما جعله يتبوأ هذا الحيز في قلوبهم، ويسترعي انتباه الجماهير.

* تعليقات متعلقة بالخطيب والخطاب معا وما أكثرها، منها:"الله أكبر" و" الله أكبر الله أكبر" و" اللهم صل وسلم على سيدنا محمد"و"عاالم"و"سلم لسانك" و" هؤلاء العلماء حقا"و"أدام الله له الصحة والعافية وبارك فيه ونفعنا بعلمه اللهم آمين يا رب العالمين"و" منتهى التواضع ومش بتاع شو اعلامي رغم أنه استاذ ورئيس قسم..."... وغيرها من التعليقات التي تحمل في طياتها ظمأ الجمهور العربي وتعطشه لسماع هؤلاء الفرسان- فرسان الكلمة- والانتفاع بعلمهم والدفاع عن الطبقات الدنيا في المجتمع، والتنبيه إلى ما يتعرضون من تهميش وضيم، وإنصافهم من خلال الاستماع لشكاويهم وإشاعة العدل في المجتمع، وهو ما تجلى في نص الخطاب من خلال اعتماد الخطيب:

- البساطة في الطرح، واليسر والوضوح؛

- المساس بواقع الناس؛

- وضوح الغاية من الخطاب(دعوة حكام الدنيا وملوكها ومن يعاونهم) على الحكم بين الناس بالعدل، ومن خلالهم دعوة الحاكم العربي المسلم؛ لأنه الولي بتطبيق شرع الله عزّ وجلّ.

* تعليقات وردت لمساءلة الخطيب، من باب:

لقد أسمعت لو ناديت حيّا

ولكن لا حياة لمن تنادي

نحو قول أحدهم:" مين يسمع يا دكتور؟" وجاء في تعليق آخر إجابة تحمل في طياتها اليأس والقنوط من صلاح المسؤولين في بلادنا، فقال:" باك الله

فيك ولكن تكلم ناس كأنهم ألواح من ثلج أو خشب" فالقارئ لمثل هذه التعليقات يحسّ بالهوّة التي تفصل بين المسؤول والرعية في بلاد العرب، وأن صلاح هذا المسؤول ما زال بعيد المنال فجاء السؤال: "أين أنت ياعمر بن الخطاب؟" والذي يمكن تحميله دلالات عديدة، منها:

- ضياع الأمانة؛ بتوسيد الأمر لغير أهله؛
- غياب العدل؛ بالاحتكام إلى القانون الوضعي، والابتعاد عن شرع الله؛
- ضياع أولى القبلتين وثالث الحرمين من المسلمين.

فالسائل أدرك مقصود الخطيب، ومرامي الخطاب الذي جاء مركزا بعيدا عن الإطناب والتطويل، من باب" من كثر كلامه كثر خطؤه" وخاليا من العسر والغرابة؛ فكانت الاستجابة من المتلقي في شكل سؤال مفاده: نريد قائدا عادلا، محتكما لشرع الله عزّ وجلّ، يُعيد علينا أمننا، ويحفظ لنا حقوقنا وكرامتنا وبلادنا...

* تعليقات تنضوي على انتقاد الخطيب، وأخرى داعية عليه، وثالثة مشككة في صدق دعواه، ورابعة متهكمة، نحو:" عمر هاشم صوفي جامي عليه من الله ما يستحق"و"مللنا الكذب والنفاق باسم الدين" و"بيكلم بس" و"ممكن" و"تخدعنا فيك منك لله" و"حسبي الله ونعم الوكيل فيه وفي كل شيخ محسوب علينا مثله" و"المستشار أبو عيطة" و"هههههه"... ويتجلى من خلال هذه التعليقات أن اليأس قد بلغ من المواطن المسلم مبلغه ومنتهاه؛ فأصبح فاقدا للثقة حتى في الرجل الرمز(رجل الدين) ومشككا في أقواله وأفعاله؛ نظير ارتماء رجل الدين في حضن الساسة والمسؤولين، والوقوف إلى جانبهم في بعض القضايا المطرحة في عالمنا المعاصر وإنْ كان ذلك مخالفا للدين، والمبالغة في خدمة المسؤول وإرضائه؛ مما أزاح عن بعضهم قدسية الدين، وأصبح هذا المواطن البسيط يشك في أدنى مواقفهم وفي دعواهم ونصحهم؛ فصنف بعضهم، وكذب بعضا آخر، وشكك في بعض ثالث، وتهكم عن رابعٍ...

* التعليقات التي هي كلمات عربية كُتبت بحروف لاتينية، نحو:"allah wakbare" أيْ(الله أكبر) وفيها ما ينمّ عن شخصية كاتب هذا التعليق وثقافته وربما تكوينه، أو تأثره بثقافة الآخر؛ فدفعه هذا إلى التعبير عن إعجابه بالخطيب أو الخطاب أو بهما معا بحرف لاتيني هذا الحرف الذي قد ينجرّ عنه إقصاء للذي لا يتقن هذا الخط من التفاعل مع هذا التعليق. ♡

* التعليقات التي وردت في شكل رموز غير لغوية، ومنها:

ملوّن باللون الأحمر، ويمل دلالة انبهار وإعجاب وتعلُّق المعلِّق بالخطيب ونص الخطاب.

* التعليقات التي أراد أصحابها إبراز بعض الكلمات فيها من خلال تكرار حرف معين فيها ، نحو:"عاالم"و"الكبيير" أو الفصل بين الكلمات بنقاط، نحو"أطال الله عمرك...يا فضيلة الدكتور الكبيير...حفظك الله" لتوسيع دلالتها، أو تحميل الكلمة دلالة زائدة(قوة في المعنى) وإعطاء الوقت الكافي للعين في قراءة هذه الكلمات؛ وهذا ما ذهب إليه الدكتور عماد عبد اللطيف بقوله عن البعد بين الكلمات أو المسافات بين الحروف أنّه:«يجعل العين تتمهل كثيرا في قراءة المفردات ومن ثمة يتيح مساحة زمنية أطول لمعالجة لها دلالاتها. كما أن إعطاء مساحة كبيرة للمفردات مع الفراغ الافتراضي لصفحة الأنترنت هو شكل من أشكال التوليد اللفظي الذي يجعل المفردات تستحوذ على اهتمام وانتباه مضاعف.»[39]

إنّ الدلالات الاجتماعية التي تحملها هذه الاختيارات اللغوية تشير إلى المحيط الثقافي والاجتماعي الذي ينتمي إليه المعلق، وما يمتلكه من قدرات خطابية؛ يستخدمها في التعبير عن

قناعاته تجاه هذا الخطاب؛ إذْ أنّ الوسط الطبيعي والاجتماعي، وقِوام الحياة الروحية(الدين) لها من الأثر ما لها؛ والذي يمكن أنْ يبدو جليا من نص الخطاب(التعليق)، والذي يهدف في مجمله إلى رفع التحدي؛ هذا التحدي الذي يتطلب منّا جميعا-خطيب وجمهور- أن نعمل جادين مستغلين في ذلك كل ما توفره اليوم التكنولوجيا، واستخدامها للوصول إلى ما نصبو إليه.

- الهوامش:

[1] - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ط5، الجزائر:1990، دار الضياء قسنطينة وقصر الكتاب بالبليدة، ج3، ص54.

[2]- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور ، لسان العرب، (د. ط) 2003، دار صادر، مادة (خ. ط . ب).

[3] - محمد بن عيسى بن سودة الترمذي، سنن الترمذي، دار الكتب العلمية، ج 3، ص 441.

[4] - ابن منظور، لسان العرب، مادة (خ-ط-ب).

[5]- المرجع نفسه، مادة(خ-ط-ب)

[6]- المرجع نفسه، مادة(خ-ط-ب)

[7] - مجمع اللغة العربيةن المعجم الوسيط، مادة (خ-ط-ب).

[8] - علي بن محمد الآمدي، الأحكام في أصول الأحكام، تح: سيد الجميلي، ط2، بيروت:1986، دار الكتاب العربي، ج1، ص 136.

[9] - عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ط3، ليبيا وتونس (د . ت) ص 112.

[10] - المرجع نفسه، ص 121.

[11]- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان، ط1، الدار البيضاء: 1998، المركز الثقافي العربي، ص215.

[12] - ينظر: أحمد لعويجي(مصطلح الخطاب في الثقافة العربية) مجلة القلم، العدد:33، جامعة أحمد بن بلة-وهران- 2015، ص(139-149).

[13] - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص 37- أحمد لعويجي (مصطلح الخطاب في الثقافة العربية). مجلة القلم، العدد:33، جامعة أحمد بن بلة-وهران- 2015، ص(139-149).

[14] - ينظر: محمد الفران، مظاهر التجديد في الخطاب الديني الإسلامي المعاصر، المغرب: 2007، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

[15] - ينظر: المرجع نفسه.

[16] - ينظر: المرجع نفسه

[17] - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ، ج1، ص133.

[18] - المرجع نفسه، ج3، ص162.

[19] - المرجع نفسه،ج1، ص42.

[20] - محمد هيثم غرة، البلاغة من منابعها(البيان والبديع)، ط1، دمشق:2007، دار الرؤية، ص10.

[21] - محمد العنار، مستقبل الدرس البلاغي، www.diwan alarab.com. بتاريخ:2018/12/04. على الساعة: 11و14دقيقة.

22- عماد عبد اللطيف(تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية)، مجلة : فصول دراسات نقدية، العددان:(83-84)مصر:2013/2012، الهيئة المصرية للكتاب، ص(509-528).

23- المرجع نفسه، ص(509-528).

24- المرجع نفسه، ص(509-528).

25- المرجع نفسه، ص(509-528).

26- المرجع نفسه، ص(509-528).

27- المرجع نفسه، ص(509-528).